لتكونوا شهداء على الناس

الشيخ الأستاذ عمر عبيد حسنة

نشر في كتاب

البعد الرسالي لمجلس التعاون الخليجي

"بلاد الجزيرة العربية"

(سلسلة مشروعات ثقافية)

إعداد إدارة البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، 2002م

لتكونوا شهداء على الناس

الأستاذ عمر عبيد حسنه(*)

(*) مدير مركز البحوث والدراسات.. (دولة قطر).

إن اختيار الجزيرة العربية، بأرضها وإنسانها ولسانها، لبدء خطوات النبوة الأولى عليها، وانتهاء الوراثة الحضارية والرسالات السماوية إليها، وتكليفها برسالة عالمية، ليس عبثاً ولا مصادفة، وإنما لتوفر خصائص وصفات ومؤهلات تجعلها محلاً لهذا الاختيار.. فالمهازيل ليسوا محلاً للصناعة الثقيلة.. والحمل الثقيل لا يطيقه إلا الأقوياء.

الرؤية الدقيقة المطلوب إدراكها، والإحاطة بها، للانطلاق صوب التنمية والنهوض، ومعاودة الإقلاع من جديد أو إخراج الأمة، ترتكز -فيما نرى- على ركائز ثلاث، يأتي في مقدمتها:

العقيدة، أو عالم الأفكار والرؤى، التي تشكل بمجموعها فلسفة الحياة، أو الشاكلة الثقافية، التي تقبع وراء السلوك الإنساني: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ (الإسراء:84)، والتصور العام للكون والإنسان والحياة، وما يبلور من قيم تضبط مسيرة الحياة، وتشكل المعايير والموازين، التي تمكن من النظر والتقويم، والمعايرة، والقبول والرفض.

والعقيدة، أو عالم الأفكار، كانت وما تزال هي المحور الأساس، الذي يتمحور حوله الإنتاج الفكري والثقافي، ويشكل في الوقت نفسه الدافع السلوكي، والمحرض الحضاري، ودليل العمل، أو البصيرة والمعالم الهادية.. فالعقيدة هي التي تحيي روح الأمة، وتشكل عقلها، ونسيجها الاجتماعي، وتحقق وقايتها الحضارية والثقافية.. لذلك فهي المسؤولة عن نهوض الأمة ورقيها الحضاري، كما أنها المسؤولة، إلى حد بعيد، عن الانتهاء بها إلى الركود والنكوص والعطالة والاستنقاع الحضاري.

وبمقدار ما تكون العقيدة، أو عالم الأفكار، سليماً نقياً ملائماً لفطرة الإنسان، بكينونته الطبيعية، مستجيباً لحاجاته الأصلية، وبمقدار ما تكون العقيدة سليمة قادرة على تقديم الإجابة الشافية والمقنعة على الأسئلة الكبرى في الحياة، عن النشوء والمصير والأهداف المحركة للإنسان، قادرة على تحقيق إنسانية الإنسان، بمقدار ما تكون مؤهلة للنهوض الحضاري، قادرة على التجاوز، وشحذ الهمم، وتجميع الطاقات، وإعادة الفاعلية في فترات السقوط الحضاري، للإقلاع من جديد.

يلاحظ ذلك وبشكل خاص عندما تلحق بالأمة الهزائم الكبرى، وتُدمر أشياؤها ومنتجاتها، فنرى أن العقيدة، أو عالم الأفكار، هو الكفيل بمعاودة النهوض.. لكن الإشكالية الكبرى عندما تكون الهزيمة في العقيدة، والإصابة في عالم الأفكار؛ لأن ذلك مؤذن بالدخول في مرحلة التيه والضلال الثقافي، الذي لا تدرك نهايته.

والتاريخ الحضاري العام، وتاريخ الأمة المسلمة، بشكل خاص، خير شاهد على قدرة الأمم المستمسكة بعقيدتها على تجاوز الهزائم، إذا كانت عقيدتها سليمة، وعالم أفكارها معافى؛ نلمح مدلول ذلك واضحاً في قوله تعالى بعد الهزيمة الكبرى للمسلمين في معركة أحد، بكل إصاباتها : ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (آل عمران:139)، فإذا كنا مؤمنين حقاً كان الإيمان، أو عالم الأفكار والقيم، كفيلاً بردم الفجوة، وتحقيق القدرة على التجاوز لإصابة عالم الأشياء، ومعاودة النهوض، حتى لو دمرت أشياؤنا.

فإذا كان للعقيدة، أو عالم الأفكار، هذه الأبعاد الحضارية، والإنسانية،

والاجتماعية، والثقافية، كان من الأهمية بمكان التوقف طويلاً عند مصدر التلقي لهذه العقيدة، واختبار أدوات التوصيل، ومنهاج التعامل، والعمل على الحراسة الدائمة لسلامتها، والمراجعة المستمرة لنفي أي غبش أو نبتة سوء يمكن أن تحيد بالإنسان عن الجادة، بل أكثر من ذلك نقول: إن هذه المراجعات المطلوبة باستمرار، والتنقية الدائمة لعالم الأفكار، تتأكد أكثر فأكثر في فترات السقوط والهزائم؛ لأن السقوط والهزيمة مؤشر خلل واضح في مسيرة الأمة وكيفية تعاملها مع قيمها وأفكارها.

ولعلنا نرى أن الفيصل الأساس في مجال العقائد، أو عالم الأفكار ابتداءً، إنما يكون في مصدر التلقي، وسلامة التوصيل، والقدرة على تجسيدها في الواقع من خلال عزمات البشر واستطاعاتهم، وحسبنا في هذا المجال أن نقول: إن نقاء العقيدة وسلامتها من التحيز، وتحقيقها للعدل الإنساني والاجتماعي، حتى مع الأعداء، وإيقاف الظلم وتسلط الإنسان على الإنسان، هو الأمر الأهم في هذا المجال، إذ لا يمكن أن يعقل أن يكون الإنسان بعلمه المحدود، وعمره المحدود، ووقوعه تحت مجموعة مؤثرات حزبية أو طائفية أو نسبية قبلية أو مناخية أو تاريخية أو مرضية، هو مصدر تلقي العقيدة (!) والخلل الذي لا يقل عن ذلك سوءاً أن يكون الإنسان مصدر العقيدة ومحلها في الوقت نفسه.. هو الذات وهو القيمة.. هو المعيار والمقياس، وهو موضوع القياس والتقويم (!)

وقد يكون الاستقراء الحضاري لتاريخ الأمم العام وما أصابها هو الذي انتهى بالكثير من المفكرين والعلماء إلى تقرير هذه الحقيقة، أو هذه السنة الحضارية، التي لخصها الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) في قوله: إن الحضارة لا تتجلى أو تظهر

إلا في صورة وحي يهبط من السماء (مصدر التلقي) يكون للناس شرعة ومنهاجاً.. وتقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي، بالمعنى العام.. فالدين ظاهرة فطرية، كونية، اجتماعية، تشكل حضارة الإنسان وتحكم فكره، كما تحكم الجاذبية المادة، وتتحكم في مساراتها. وعلى هذا، يبدو الدين وكأنه مطبوع في النظام الكوني قانوناً خاصاً بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة، من الإسلام الموحد إلى أحط الوثنيات البدائية.

ولا شك عندنا أن العقيدة كانت على مدار التاريخ ولا تزال، تشكل المحور وبؤرة الاهتمام في الحراك الثقافي والتحريض الحضاري، سواء في ذلك الذين يناصرونها ويدافعون عنها، ويجتهدون في البرهان على صحتها ودورها في تحقيق إنسانية الإنسان وسعادته وتخليصه من تسلط الإنسان على الإنسان، أو الذين يواجهونها ويحملون لها العداوة، ويحاولون إسقاطها واستغلالها للتسلط باسم الدين، بشتى الوسائل، وإن كنا نقول هنا: إن الإشكالية، أو محل المعركة حضارياً وتاريخياً، كانت غالباً في ممارسة الكهانات الدينية أكثرمن أن تكون في العقيدة الدينية ذاتها؛ لأن العقيدة لازمة فطرية بشرية، حيث لا إنسان بلا عقيدة، أياً كانت تلك العقيدة، ابتداءً من الإنسان البدائي الوثني بعقائده، ومروراً بالعقائد السماوية، وانتهاءً بالرسالة الخاتمة التي خلصت البشرية من الاستغلال والكهانات ووضعت الإنسان أمام الله بدون وسائط البشر.

وقد تكون المحصلة النهائية للذين يمارسون محاربة العقيدة، أنهم إنما يحاولون القيام بعملية إخلاء وإملاء، أو عملية استبدال، لتصبح نظرياتهم وأفكارهم هي عقائد للناس، وبذلك تُستدعى عقائد بديلة أو كهانات بديلة، أو آلهة عصرية

سياسية واقتصادية.. إلخ، ويصبح أصحاب النظر والفلسفات والعقائد هم الكهانات الجدد والآلهة الجدد.

فالإشكالية ليست دائماً في طبيعة العقيدة وخصائصها ومدى ملاءمتها للفطرة، بل قد تكون الإشكالية كلها في الكهان، الذين يستغلون العقيدة، بحيث تلتبس الذات بالقيم، وتغيَّب تعاليم العقيدة الدينية لتحل محلها تفاسير ومفاهيم وشروح وتقاليد الكهانات، وعند ذلك يسود ضرب من الإرهاب الفكري باسم الحفاظ على العقيدة، فيصبح الكلام عن الكهانة ونقائصها ونقائضها كلاماً على العقيدة.

وبالإمكان القول: إن النبوة الخاتمة الخالدة، التي كان محلها أرض الجزيرة العربية، وقاعدتها البشرية الأولى إنسان الجزيرة، ووعاء تعبيرها لغة أهل الجزيرة، واستيعابها يحدده مفهوم العرب ومعهودهم في الخطاب، ومعجزتها ممتدة ومجردة عن حدود الزمان والمكان والأشخاص والكهان، بحيث تمتلك المعيار (النص الإلهي) السليم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ذلك أنه على الرغم من تقدم العلوم وتطور الفلسفات وتواصل الحضارات، لم تسجل عليه إصابة واحدة؛ هذه النبوة الخاتمة بتجربتها التاريخية الحضارية في مهبط الوحي، تعتبر من أهم الإمكانات التي تهيء إنسان الجزيرة لمعاودة الانطلاق صوب الذات وصوب (الآخر)، وأعظم القدرات الكامنة التي يمتلكها منطلقاً من عقيدة التوحيد التي تحمل المساواة، وتوقف تسلط الإنسان على الإنسان، وتلغي جميع أنواع الوثنيات، وتلغي الكهانات التي يمكن أن تقوم باسم الدين، وتسوي الناس أمام الله وعبادته بدون واسطة.

أما **الركيـزة الثانيـة** التي يقـوم عليهـا النهـوض -فيمـا نـرى- فهـي **التـاريخ**. **فالتـاريخ هـو التجسـيد العملـي للعقيـدة، أو لعـالم الأفكـار، أو هـو التجلـي والاستجابة للقيم والأفكار في سائر الأنشطة الإنسانية.. وهو الذاكرة الجمعية المتراكمـة للأمـة، وسـجل حركتهـا، ومـرآة مسـتقبلها، أو هـو المختـبر الحقيقـي للمبـادئ والأفكـار ومـدى قابليتهـا للتطبيـق ونصـيبها منـه**، وقـدرتها علـى البنـاء الحضـاري ابتـداءً، ومعـاودة النهـوض الحضـاري عنـدما تتعـرض الأمـم للإصـابة أو السقوط، لسبب أو لآخر.

والتـاريخ لـيس شـيئاً منفصـلاً مـن عـالم الأفكـار، بإطـاره العـام، وإن بـدا فيـه بعض الجنوح والخروج والانفلات في بعض الأحيان، ونشأت على جوانبه بعض نباتات السوء التي لا تلبث أن تتضاءل وتغيب، لعدم توفر المشروعية العليا لقيم العقيـدة وعـالم الأفكـار في صـياغتها؛ لأن العقيـدة هـي روح التـاريخ ومرتكـز تدفقـه، منهـا تسـتمد القـيم والمـوازين الـتي تقـوم الفعـل البشـري، وتبـيّن مـواطن الإصـابة، وتحـدد أسـباب القصـور ومـواطن التقصـير ، وتصـوب مسـيرة التـاريخ وتحميها، وتبين سبيل الخروج ومعاودة النهوض.

والتـاريخ يمـنح البصـارة للأجيـال، في حاضـرها ومسـتقبلها، ويختـزل أعمـاراً في عمـر، وتجـارب في تجربـة، وهـو تـراكم معـرفي لأجيـال في جيـل،بحيـث يقـف علـى أكتاف من سبقوه، فيبصر الماضي ويستشرف آفاق المستقبل.

والتاريخ يُوقف الإنسان على قمة التجربة التاريخية للأمـم، ويتحقـق برصيدها، ويمكِّن من استقراء قـانون الحركـة الاجتماعيـة واكتشـافه، ذلـك القـانون الـذي ينـتظم سير الأمم، ويبين فاعلية السنن في الأنفس والآفاق، ويؤكد اطرادها، ويبصِّر بكيفية

التعامل معها، ويحذر من الغفلة عنها، والعدول عن تسخيرها.

وخلاصة القول: إن التاريخ بيان، ومعرفة، وعلم، واهتداء إلى السنن الفاعلة في الحياة والأحياء، وعبرة وموعظة بمن سبق من الأمم، ووقاية حضارية من إصابات السقوط.

وحيث كان للتاريخ هذه الأهمية والدلالة والدور الأساس في تلمس وسائل النهوض الحضاري وتصويب المسيرة البشرية وتحقيق الوقاية، فقد جعل الإسلام تاريخ الأمة، وعلى الأخص الذي تشكل وانطلق من مهبط الوحي (بلاد الجزيرة العربية) لا يقتصر على تاريخ الفترة الزمانية والمكانية الخاص بمهبط الوحي، وإنما أوقفت معرفةُ الوحي إنسانَ هذه المنطقة المنطلق، على قمة التجربة البشرية، وجعلت رصيد المسيرة التاريخية للأمم، بكل ما فيها، تاريخاً لحملة الوحي الخاتم، على الرغم من اختلاف الزمان والمكان، وبذلك امتلكت أرض الوحي المخزون التاريخي العام والجذور الضاربة في عمق الزمان والمكان، وشكَّل القصص القرآني، الذي يمثل تاريخ النبوات، ويبصِّر بتضاريس السقوط والنهوض، المساحة التعبيرية الأكبر في نصوص الوحي (القرآن) لأهل مهبط الوحي ومن ثم المسلمين بشكل عام، ليتحركوا على بينة، ويستشرفوا الماضي بكل عبره، ليصلحوا الواقع ويبصروا المستقبل تماماً، ويعيدوا البناء وفق سنن الله التي لا تحابي أحداً، وتكون عندهم القدرة على الانفتاح والانتفاع بتجارب الآخرين، التاريخية منها والمعاصرة، حتى لنكاد نقول: إن التاريخ الإنساني انتهى إلى مهبط الوحي ابتداءً.

فتاريخ الجزيرة في أبعاده الحقيقية هو التاريخ الإنساني، عبرة وعطاءً، قال تعالى:

﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:137-138)، حيث لم يرض الله لأهل هذه المنطقة، قبلة الأمة المسلمة بشكل خاص، أن تقتصر على التاريخ الخاص، وإنما طلب إليها التحقق بالتاريخ العام.

وقد لا نستغرب بعد ذلك أن يأتي الأمر الإلهي، على الرغم من امتلاك نصوص الوحي الخاتم وبيانه النبوي، يطلب السير في الأرض، والتوغل في التاريخ العام، والتزود بالقوانين الاجتماعية، والتحقق بإدراك السنن الفاعلة في الحياة والأحياء (الفرض الحضاري).

إن أرض الجزيرة بدأ تاريخها بالنبوة الأولى، وتعاليمها بدأت بتاريخ أبي الأنبياء، عليه السلام، عندما أسكن ذريته بوادي مكة المكرمة، وحدد الهدف، ورسم المسار، وقص الله ذلك بقوله: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ... ﴾ (إبراهيم:37)؛ وانتهت إليها النبوة الخاتمة: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (الأحزاب:40)؛ وفيها بُني أول بيت لعقيدة التوحيد والمساواة وإيقاف تسلط الإنسان على الإنسان ، وعندها ألغيت الوثنيات بجميع أشكالها: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران:96)، وإليها انتهت وراثة التوحيد: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ (الحج:78).

وهنا قضية قد يكون من المفيد لفت النظر إليها، وهي: أن هذه الأرض، أرض الجزيرة العربية، أو أرض النبوة ومهبط الوحي، إضافة إلى أنها منطلق التاريخ

الإسلامي وامتداده بكل أزمانه وأقاليمه ورجاله، إلا أنها تتميز دون سواها من أرض الإسلام بأنها كانت الوعاء لمرحلة السيرة وبناء الأنموذج وسيرة جيل خير القرون.

والسيرة النبوية، رغم أنها حلقة في تاريخ الأمة المسلمة، إلا أنها حلقة متميزة؛ لأنها تشكلت على عين الوحي وحركة المعصوم ﷺ وبيانه، من خلال تأييد الوحي وتسديده، وغطت جميع المساحات التاريخية والإنسانية بما في ذلك: فترة الدعوة، والمجتمع والدولة، والسرية والعلنية، والضعف والقوة، والتمكين، والنصر والهزيمة، وبناء المجتمع، والمواجهة، والمعاهدة، والحوار .... إلخ، ابتداءً من الخطوات الأولى للنبوة وحتى بناء الأنموذج، كمالاً واكتمالاً، كل ذلك على أرض الجزيرة، ابتداءً من قوله تعالى:﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾، ووصولاً إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ (المائدة:3)، فهي مرحلة الأسوة والقدوة، لأنها الفترة المعصومة، المسددة بالوحي والمؤيدة به، إلى جانب كونها حلقة في التاريخ.

فإذا كان تاريخ الإسلام، أو تاريخ المسلمين فيما بعد مرحلة السيرة، يشكل عبرة وعظة، فإن فترة السيرة العملية في الجزيرة تمثل الأسوة والقدوة، ومصدر التشريع، والمعيار لتحويل الفكر إلى فعل، أو العقيدة إلى عمل.. وليس ذلك فقط، بل تعتبر السيرة مع فهم القرن الذي شهد له الرسول ﷺ بالخيرية، إلى جانب قيم الوحي، أو معرفة الوحي، المرجعية الشرعية لكل فترات التاريخ الإسلامي والحاضر والمستقبل الإسلامي.

فالتجربة التاريخية (السيرة) لتنزيل القيم في الكتاب والسنة على واقع الناس، وتحقق تطبيقها، والالتزام بها، من خلال عزمات البشر وخصائص إنسان بلاد

الجزيرة العربية، أو إنسان المنطقة، الذي أهلته خصائصه وصفاته لأن يكون مهبط الوحي ومحله ووعاءه وأنموذج تطبيقه، تعتبر تكليفاً من جانب، وهو أهل لهذا التكليف بما يمتلك من خصائص وصفات تؤهله لمعاودة الانطلاق، وتشريفاً من جانب آخر لاختياره محلاً للرسالة الخاتمة وحملها إلى العالم، وهذا شرف عظيم، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، وتأتي على قدر الكرام المكارم.

فالتجربة الحضارية تعني – فيما تعني – أن الأرض التي أنبتت هذا العطاء، على مستوى الإنسانية جميعاً، مؤهلة لمعاودة الإخراج لخير أمة، تستأنف العطاء الإنساني إن هي أحسنت التعامل مع القيم، واهتدت بتجربتها التاريخية، واكتشفت ذاتها ومؤهلاتها، ومسؤولياتها تجاه العالم.

فإذا قلنا مع رؤية المفكر الكبير مالك بن نبي (رحمه الله): إن نهوض أي مجتمع مرهون إلى حد كبير بتوفير ظروف وشروط ميلاده الأول، أدركنا أهمية الاهتداء بالتجربة التاريخية الحضارية وإمكان ذلك.

فالجزيرة ابتدأت فيها النبوة واختتمت في أرضها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (الأعلى:18-19)؛ والجزيرة أُضيف إليها رصيد التاريخ البشري؛ والجزيرة مهبط الوحي تمتلك النص الإلهي السليم ومدلولاته ومواطن نزوله وحركته، وهو النص الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ والجزيرة تمتلك التجربة التاريخية الحضارية؛ والجزيرة تمتلك الفترة التي تمثل المعيار للفعل التاريخي، والجزيرة بُني على أرضها الأنموذج، بكل تشكيلاته وتطوراته وحالاته المتنوعة.

فهي بذلك كله مؤهلة، إن هي أدركت مسؤوليتها الرسالية، لمعاودة الانطلاق،

وإيصال الرحمة للعالمين، حيث لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، أو كما قال إمام دار الهجرة، الإمام مالك رحمه الله.

والركيزة الثالثة في البناء والنهوض الحضاري إنما تتمثل في **فقه الواقع**.. وهو الأمر الغائب اليوم عن الكثير من فقهنا وفكرنا، ولا بد أن نعترف ابتداءً بالتقصير في امتلاك أدواته، ذلك أن **الواقع بكل مكوناته، بعالم أفكاره، وعالم أشيائه ومنتجاته، يشكل إلى حد بعيد ثمرة الماضي ومستقبله وامتداده، فالحاضر مستقبل الماضي، وبعده ومداه، وهو في الوقت نفسه يشكل ماضي المستقبل**.. فصناعة المستقبل والصورة التي نريدها للمستقبل يبدأ رسمها ونسجها من خيوط الحاضر، ويُستشرف لها الماضي بكل عبره ودروسه والإصابات التي لحقت به، بسبب العجز عن حسن التعامل مع القيم، حتى تشكَّل الحاضر على الصورة التي هو عليها.

فهاجس التغيير والقلق الحضاري- إن صح التعبير- أو القلق السوي، حيث القلق سويّ ومرضي، هو الذي يبني إرادة التغيير، ويشكل الهم الذي يصنع الهمة، ويجمع الطاقة، ويسترد الفاعلية، ويدفع للبحث عن مواطن الخلل وتحديد مواطن القصور وأسباب التقصير؛ يدرس الظواهر الاجتماعية ويتعرف إلى أسبابها، ولا يقتصر على معالجة آثارها السلبية، وإنما يتجاوز إلى معرفة السنن والأسباب وقوانين الحركة الاجتماعية التي تحكمها، ويتحول إلى دراسة هذه السنن وكيفيات تسخيرها، والتعرف على سنن المدافعة وكيفية تفعيلها، ومغالبة سنة بسنة، أو قدر بقدر.

وليس ذلك فحسب، وإنما التعرف على الإمكانات بكل أبعادها المادية

والمعنوية، والمحركات الاجتماعية، وتصميم الخطط والبرامج لحركة المجتمع، ووضع الأوعية الملائمة لحركة الأمة، ضمن إطار الإمكانات، بعيداً عن الأمنيات؛ وإن كانت الأمنيات هي التي تخصب الخيال وتحرك الحماس وتنشئ الحافز وترسم الفضاء، الذي تتحرك من خلاله الإمكانات بدون مجازفة وهدر لها.

ولا شك أن دراسة الواقع بكل مكوناته، وتحليله، والتعرف إلى المحركات الاجتماعية أو السنن التي تحكمه، لم تعد قضية خاضعة للتأمل والتمني والشعارات المرفوعة، وإنما أصبح لذلك علوم وأدوات بحثية وتخصصات معرفية في العلوم الاجتماعية بكل فروعها، إلى جانب ما تقتضيه الدراسة من عمليات الاستقراء والمسح الاجتماعي والإحصاء، بكل فروعه ومجالاته، وبعد ذلك كله يمكن أن تتوفر لدينا الرؤية الكاملة والدقيقة والموضوعية لوضعه في السياق التاريخي المناسب للأمة، بكل تضاريسه ومنحنياته، سقوطاً ونهوضاً، ومن ثم القيام بعملية المقاربة، للتحقق بالخبرة والعبرة التاريخية التي تعين على إبصار العلاج وتداعيات المستقبل.

إن عملية النهوض، وردم فجوة التخلف، ومعالجة الخلل، وتسديد الطريق إلى المستقبل، تتطلب العودة إلى مسيرة السيرة، بكل مراحلها وعطائها وتطوراتها، ذلك أن السيرة بخلودها هي منجم عطاء ودليل تنزيل للنص الخالد المجرد عن حدود الزمان والمكان، خاصة وأن معاودة النهوض على أرض النبوة نفسها، ومن خلال إنسانها، إضافة إلى أن السيرة محل التأسي والاقتداء، الأمر الذي يقتضي وضع هذا الحاضر أو هذا الواقع في موضعه من مسيرة السيرة، ومن ثمّ تحديد موقع الاقتداء من خلال الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة، إذ لا يمكن

أن تكون مرحلة القوة والتمكين والمجاهدة لدرء الفتن في السيرة، هي محل الاقتداء لمجتمع يعيش مرحلة الاستضعاف والتخلف، بل الاقتداء لابد له أولاً من تحديد موقع الحاضر من مسيرة السيرة الطويلة، ابتداءً من بدء الخطوات الأولى من بدء الوحي: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾، وانتهاءً بالوصول إلى بناء الأنموذج وتحقيق حالة الكمال، بكل ما بينهما من منعرجات، من نصر وهزيمة، ودعوة ودولة.... إلخ.

وتشتد الحاجة أكثر فأكثر هنا، عندما يكون التفكير في إعادة إخراج الأمة إنما يتم على أرض النبوة نفسها وفي إطار إنسانها، بكل ما يمتلك من رصيد تجربة حضارية تاريخية تشكل معالم هداية، وتمنح الأمل بالقدرة على معاودة البناء لنسق التجربة على الأرض نفسها وبإنسانها ومناخها وأرضها وجبالها.

وهنا قضية تكاد تكون مسلمة حضارية، تبلورت نتيجة لاستقراء التاريخ الحضاري الإسلامي، إضافة إلى مواعيد الله سبحانه وتعالى ومواثيقه، وهي أن خلود الرسالة، أو خلود عالم الأفكار، يعني تجردها عن حدود الزمان والمكان، وقدرتها على الإنتاج في كل زمان ومكان، إذا أحسنا التعامل معها، وذلك بتجريدها من قيود الزمان والمكان، وتوليدها في كل زمان ومكان.

وهذا الخلود بمقدار ما يصدق على سلامة القيم الإسلامية وقدرتها على الاستجابة للمستجدات والمتغيرات في تاريخ البشرية؛ لأن الرسالة خاتمة وخالدة، بمقدار ما يصدق أيضاً على معاودة إنتاج الأمة التي تضطلع بهذه القيم وإخراجها للناس من جديد.. والتاريخ شاهد على أن المجتمعات الإسلامية عموماً كلما أحسنت التعامل مع القيم تحقق لها النهوض والشهود.. فكيف ببلاد الجزيرة؟

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى نوعية أدوات التقويم والقياس لواقع المجتمع وتحديد مواطن الخلل فيه، حتى لا تطيش السهام، وتتنافر الآراء، وتتحكم الأهواء، ومن ثم وضع المجتمع بكل حاله في السياق التاريخي، لتحقيق العبرة، وفي الموضع المناسب لمسيرة السيرة، لتحقيق القدوة، ذلك أن القيم وأدوات التقويم والبحث في الإسلام مصدرها معرفة الوحي وليس أهواء البشر.

فتقويم المجتمع إنما يتم من خلال معايرته بالقيم الإسلامية، وقياسه على أصوله الحضارية، والنظر إليه من خلال عالم أفكاره، وتحديد مواطن الإصابة للوصول إلى كيفية التعامل مع القيم وتنزيلها على الواقع في ضوء ذلك، وإلا كيف يتسنى لنا تحديد الخلل واختيار نوع المعايير المستخدمة؟ فقضية المعايير على غاية من الأهمية، لأن الخلل في المعيار يقود إلى النواتج المختلة والنتائج غير السليمة.

لذلك نقول: إنه بعد تحديد مواطن الخلل وأسبابه، من خلال سنة الله في الخلق وقانون السقوط والنهوض الحضاري، ووضع الواقع في سياقة التاريخي للأمة، وتحديد موضعه من مسيرة السيرة، لتحديد مواطن الاقتداء وكيفياته، تبدأ عملية التنزيل والتسديد، ومعالجة الخلل، من خلال سنن التدرج والمدافعة، والنظر إلى الواقع في ضوء القيم، والتعامل مع القيم وكيفيات تنزيلها للمعاجلة من خلال الواقع.

أما محاولة تقويم المجتمع وتحديد إصاباته من خلال سياق تاريخي غير تاريخه، أو من خلال أصول حضارية غير حضارته، فذلك نوع من تكريس السقوط وديمومة التخلف، إذ لا يمكن أن يُقاس واقع مجتمع ويحاكم بغير سياقه التاريخي وأصوله

الحضارية وقيمه الثابتة، هذا على الرغم من اعترافنا أن الواقع اليوم بدأت تساهم بصنعه مجموعة اعتبارات داخلية وخارجية بعد أن كاد العالم يصير واقعاً واحداً.. لذلك فدراسة الواقع تتطلب أيضاً وضعه في السياق الدولي، وأخذ ذلك بعين الاعتبار، تأثيراً وتأثراً.

ومع ذلك، فعمليات التحديث والنهوض والتجارب العديدة، التي جاءت من خارج القيم والتجربة التاريخية والمعادلة الاجتماعية للأمة باءت بالفشل، كما أن محاولات النهوض في الداخل الإسلامي اعتراها الكثير من الضمور والتخلف، وبقيت عاجزة عن الامتداد وتحقيق الخلود بأبعاده المطلوبة، لعدة أسباب، لا مجال لذكرها هنا، لكن حسب تلك المحاولات أنها احتفظت بالإمكان الذاتي للأمة، وإنْ عجزت عن التوليد، بينما التجارب القادمة من الخارج الإسلامي تجاوزت وأسقطت الإمكان والأهلية وألقت بنفسها على (الآخر) المختلف، فلا الارتماء حقق النهوض، ولا الانكفاء ساهم بالترقي، فلابد من تحديد الخلل واسترداد الدور الرسالي من خلال القيم الإسلامية والمسيرة التاريخية.

لذلك فإنسان الجزيرة العربية، أرض النبوة الأولى، ووارث الرسالة الخاتمة، مدعو قبل غيره للاستشعار بمسؤوليته الحضارية والثقافية والدينية، أولاً ليعي ذاته ويصوب مسيرته بتحقيق شهادة الرسول عليه ﷺ، ومن ثم يحمل الخير للعالمين.

ذلك أن الأرض والإنسان، التي كانت مهبط الوحي، ومحلاً لحمل الخير للعالم، والقاعدة البشرية الأولى التي انطلقت بالإسلام إلى الناس، وكانت محلاً لبناء الأنموذج تحت عين النبوة، وأنبتت جيل خير القرون، وأنتجت أجنة الدعوة الأولى، هي مؤهلة بطبيعة الحال لمعاودة الإنتاج على مستوى الفكر والفعل إن هي

أحسنت التعامل مع رصيدها وإمكانها الحضـــاري، فوعت ذاتها، وصوّبت شهادة الرسول ﷺ عليها: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ (البقرة:143)، ومن ثم انطلقت للمساهمة بالعطاء الإنساني: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ (الحج:78)، بحيث تدرك بدقة أن تخليها عن إدراك بعدها الرسالي، وانسحابها من الساحة، وتحولها إلى محلٍ للتلقي من (الآخر) دون معيار، وتخليها عن دورها في معالجة الأزمة الإنسانية، بما تمتلك من قيم ومعايير إنسانية بعيدة عن التحيز والتعصب، سوف يؤدي إلى تفاقم أزمة الحضارة الإنسانية أيضاً واستحكام الفتن في الأرض، فالله تعالى يقول:﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ (الأنفال:73).

فالعالم يعاني من الفساد والإفساد، بسبب غياب القيم العادلة التي تحقق المساواة وتسترد إنسانية الإنسان، لذلك فالمسؤولية عظيمة، والعطاء عظيم، والثواب على استرداد الدور الرسالي العالمي عظيم أيضاً.

فإذا كان المسلمون عامة مسؤولين عما حل بهم، ومسؤولين تجاه (الآخر) بطبيعة التكليف وطبيعة الرسالة وعالميتها وإنسانيتها، بعيداً عن الإقليمية والتعصب، فإن أرض النبوة، أو الجزيرة العربية، وإنسان النبوة، ومهبط وحيها، ووعاء حركتها الأولى، ولسان خطابها للناس، تصبح المسؤولية بالنسبة له آكد.

ولعلنا نقول: إن اختيار هذه المنطقة من العالم، بأرضها وإنسانها وزمانها ولسانها، لبدء خطوات النبوة الأولى عليها، وانتهاء الوراثة الحضارية والرسالات السماوية إليها، وخصها برسالة النبوة الخاتمة، التي انتهت إليها أصول الرسالات السماوية،

وكان تكليفها وخطابها للعالم، ليس عبثاً ولا مصادفة، وإنما لتوفر خصائص وصفات ومؤهلات تجعلها محلاً لهذا الاختيار ولهذه المهمة العالمية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:107)، ولهذا القول الثقيل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل:5).. فالمهازيل ليسوا محلاً للقول الثقيل.. والحمل الثقيل لا يطيقه إلا الأشداء الأقوياء، فالرسول ﷺ يقول: «...**أنا خيار من خيار**»[1].

لذلك يمكن لنا أن نلمح في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام:124)، بعض الآفاق والأبعاد التي تمكننا من استبانة بعض أبعاد حدود المسؤولية والمهمة والأهلية وخصائص القيادة المركوزة في أرض النبوة، التي تؤهلها للاضطلاع بدورها الرسالي.

ولئن كان المدلول الأقرب لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ إنما ينصرف نحو اختيار الرسول ﷺ، من بين سائر الخلق، لما يتمتع به من خصائص وصفات ومزايا تؤهله لهذه المهمة، المعنى الذي أدركته السيدة خديجة رضي الله عنها بفطرتها وعشرتها لرسول الله ﷺ عندما جاءه الوحي فعاد إليها مفزوعاً خائفاً مما لا عهد له به، فأدركت طبيعة المهمة وأسباب الاختيار والعواقب السليمة، في ضوء الخصائص والصفات التي يتمتع بها، فثبتت وطمأنت وقالت: «... **أَبْشِرْ**،

(1) أخرجه الحاكم والبيهقي.. وفي صحيح مسلم: (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)؛ وأخرج الإمام أحمد عنه ﷺ: (أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً) (أخرجه الإمام أحمد).

فَوَاللَّهِ لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ »[1].

فالرسول ﷺ كان يهيأ منذ طفولته.. عصمه الله وهيأه لهذه المهمة.. ولئن كان ذلك للرسول ﷺ فإنه يصدق أيضاً على المكان، الجزيرة العربية، التي اختارها الله من بين سائر الأمكنة، لتكون مهبط الوحي، أو أرض النبوة، ومكان القبلة والوجهة، والمحور الذي يطوف به الناس (بيت التوحيد): ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى:7)،﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ﴾ (آل عمران:96).

فاختيار الرسول ﷺ، جاء خياراً من خيار، وقد وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:4)، واختيار الجزيرة العربية مهبط الوحي لما كان عليه أهلها من السجايا النفسية والخصائص الخلقية من كرم، وشجاعة، ونبل، وصدق، ووفاء، ونصرة للمظلوم، وحسن الجوار، والرسالة إنما جاءت لتحقيق الاكتمال والكمال لهذه الأخلاق، ولا أدل على ذلك من قول رسول الله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[2].

كما يصدق أيضاً على الإنسان، الذي تشكلت منه القاعدة البشرية الأولى، واستطاع تمثل القيم والمبادئ السماوية في نفسه، ونزّلها على الواقع بكل مكوناته من خلال عزماته، وحفظها من التبديل والتحريف والانتقاص، وبُني من خلاله الأنموذج الذي يثير الاقتداء.

(1) أخرجه البخاري.
(2) أخرجه البخاري

ويصدق أيضاً على الزمان واللحظة التاريخية، التي اختيرت للتنزيل دون سائر الأزمنة.

ويصدق أيضاً على اللسان: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ (يوسف:2)، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء:195)، فاللغة العربية بما تمتلك من قدرات هائلة على مستوى الألفاظ والمعاني والمفردات والمترادفات والقدرة على النمو والتوليد والارتقاء، كانت مؤهلة لتصبح وعاءً للمعجزة البيانية، المعجزة الخاتمة، فتكون وعاءً للتعبير، وأداة للتفكير، ويكون معهود العرب في الخطاب معيناً على فهم وتفسير مدلولات كلام الله الخاتم، ويكون أهل الجزيرة العربية ولغة قريش وأهلها طرق الاتصال والتواصل مع كلام الله وفهمه، ويكون أهلها وفهمهم حجة في البيان والتفسير.. و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام:124).

فهل نجتهد لنعلم أسباب هذا الجَعْل، وندرك أبعاد مسؤوليتنا في هذا الجعل، ورسالتنا من هذا الجَعْل، وموقعنا عالمياً من هذا الجَعْل، وخطورة نكوصنا عن هذا الجعل؟

نعود إلى القول: إن جعل الرسالة الخاتمة في هذا الموقع، واختيار هذا الإنسان محلاً لها ابتداءً، وقدرته على الانطلاق بها إلى العالمين، إنما جاء عن علم من الخالق بالخصائص والصفات والمؤهلات.. هو جَعْل قائم على علم ومعرفة، وليس عبثاً ولا مصادفة.

لقد عرف العرب في الجزيرة، قبل الإسلام الكثير من القيم الإنسانية، عرفوا الشورى كقيمة سياسية واجتماعية، وكانوا يتداولون الرأي، وكانت دار الندوة المشهورة محلاً مشهوداً للتداول والتشاور واتخاذ القرار، ولا غرو في ذلك حيث لا

يزالون على بقايا ملة إبراهيم عليه السلام.

كما عرفوا نصرة المظلوم ووقع الظلم، فلقد تلمس العرب قبل الإسلام وجهة الخير، وتعاقدوا وتعاهدوا وتحالفوا على نصرة المظلوم ورد الحق إلى صاحبه، ولا أدل على ذلك من عقدهم لحلف الفضول، الذي تم في دار عبد الله ابن جدعان وحضره الرسول ﷺ، قبل البعثة، وكان مضمون هذا التحالف: ألا يبقى في مكة مظلوم إلا وترد له ظلامته، حتى أشاد الرسول ﷺ بهذا التوجه الخيّر بعد البعثة، وقال: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النّعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت**» [1].. ولابد أن ندرك أن هذا التحالف إنما كان قبل خمسة عشر قرناً تقريباً.

فالحنيفية، ملة سيدنا إبراهيم، لم تنقطع في الجزيرة العربية، وبقيت هناك مجموعة تأبت عن الوثنيات جميعها، فلم يقبلها عقلها، واستمرت في رحلة التأمل والبحث عن الحقيقة والاختبار للعقائد السائدة، حتى أن العرب وُصفوا قبل الإسلام بالضلال، والضال -من بعض الوجوه- هو الإنسان القلق، الذي لم يقبل بالواقع، ويشعر بالغربة فيه وعدم الوصول إلى الهدف، ويستمر بالبحث، لذلك فهو يحاول التفتيش عن الحقيقة ويسعى للوصول إلى الهدف، حتى جاءت معرفة الوحي، وحققت الوصول إلى الهدف المطلوب، فكانت ضالة الضالين بالإسلام.

فالعرب الذين وصفوا بالضـــلال، وجدوا ضالتهم بالإسلام، وكأنه كان بينهم، بخصائصهم وصفاتهم، وبين الإسلام بعقيدته وقيمه، تواعد والتقاء.

(1) أخرجه ابن اسحاق وابن هشام وغيرهم.

وعلى هذا، فلم يكن العرب قبل الإسلام من المجتمعات الساكنة الراكدة، وإنما كانوا من المجتمعات الدينامية المتحركة القلقة من الواقع، الباحثة عن المثل الأعلى.. حتى عبادة الأوثان التي كانت تشكل وراثة اجتماعية، لم تكن مقنعة، فكم من موقف يحمل دلالات نحو هذا الاتجاه، ونكتفي هنا بموقف واحد لعله يشكل نافذة للإطلالة منها على الحال في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وذلك عندما ذهب أحدهم إلى وثنه يتعبد عنده فوجد ثعلباً يبول عليه – وكثيراً ما تهوى هذه الفصيلة من الحيوانات البول على النصب- فاغتاظ لذلك وأحس بالهوان والاستصغار لنفسه وعقله وكرامته، فقال:

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه   لقد هان من بالت عليه الثعالب

ولا معرة في ذلك، فقد وصف الله سبحانه الرسول ﷺ الذي ترفع عن عبادة الأوثان وكان دائم التفكير والخروج إلى الخلاء والبحث عن الحقيقة، وصفه الله بالضلال عن الحقيقة، رغم البحث عنها، حيث لا تتأتى مثل هذه الحقيقة الكبرى إلا من طريق الوحي، أو يستمر الضلال، قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ (الضحى:٧).

ومن جانب آخر، تعتبر الجزيرة العربية من البلاد التي بقيت في منأى عن التأثر بالديانات الأخرى، وعاشت اليهودية والنصرانية على هوامشها ولم تصل إلى عمقها، ولم تكن مقنعة لإنسانها، فجاء اختيار الجزيرة العربية عن علم وعن مؤهلات واستحقاقات وصفاء وفطرة سليمة.

وقد يكون من الأمور اللافتة حقاً، أن العرب بشكل أخص، كانوا قبل الإسلام يعانون من عقدة الزعامة، وإشكالية السلطة، وأن الكثير من العداوات

والحروب والثارات والصراعات، يمكن تفسيرها على أنها كانت بسبب النزاع على السلطة والنفوذ، وهذا من بعض الوجوه يشكل ظاهرة صحيّة، إذ كيف يمكن على العموم أن يقبل الإنسانُ من إنسان مثله، أن يكون له عليه حق السيادة والتشريع والسلطان، خاصة وأن الناس، يولدون متساوين، وينظرون لبعضهم وكأنهم يجلسون على مائدة مستديرة، بالاصطلاح الدبلوماسي، وأنه لا حق لأحد بميزة عن الآخر؟

ولعل هذه العقلية هي إحدى مقومات التأهل والقابلية لاعتناق الإسلام، والقبول به؛ لأنه سوى بين الناس أمام الله، وألغى الكهانات، والواسطات بين الإنسان وبين ربه (طبقة الأحبار ورجال الدين) تلك الوساطات التي تتحول لتصبح وسيلة للاستغلال والابتزاز، ويمكن أن نقول: إن ذلك كان السبب الرئيس لعدم انتشار الديانات السائدة قبل الإسلام، حيث لم تجد عندهم القبول لوجود هذه الوسائط، ذلك أن قيم التشريع في الإسلام تُستمد من الله وليست من البشر، والعبادةُ تمارس بدون وساطة بشرية، والمساواة أمام الله متحققة للجميع... إلخ.

وقد لا يكون مستغرباً أن نقول: إن الاستقراء لتاريخ العرب يدلل على أنه كلما فترت العقيدة في نفوسهم وهبطت أقدار التدين في حياتهم، برز الصراع على الزعامات والخلافات؛ وإن العرب، لم يتوحدوا تاريخياً إلا بالإسلام؛ وإن جميع الطروحات والبدائل القادمة من خارج القيم الإسلامية لم تزدهم إلا فرقة وشتاتاً وتنازعاً على الزعامة؛ وإنهم إذا لم يُحْكَمُوا بقيم السماء فلن يقبلوا بحكم قيم البشر أمثالهم ويقبلوا بالخضوع لها.

ولا يتسع المجال للمضي في التتبع والاستقصاء للحال التي أهّلت إنسان الجزيرة لهذا الجعل وهذه المهمة الكبيرة والمسؤولية العظيمة، على الرغم من أنها تكليف وأعباء ومسؤوليات عن الخلق أجمعين، ورسالة إلى العالم، إلا أنها من وجه آخر تشريف، فلولا المؤهلات والصفات والخصائص لما كان التكليف والجعل من الله سبحانه وتعالى.. وجاء التاريخ يصدق هذه الأهلية، وأن هذا الجعل كان في محله، فكان العطاء الكبير والتفاني الكبير، ولا يُستغرب الخير من معدنه، وكيف لا يكون ذلك وهو من الله العليم الخبير.

إن القيم الإسلامية -كما أسلفنا- تحققت في قاعدتها البشرية الأولى (عرب الجزيرة) من خلال عزمات البشر، حيث كانوا في مستوى الجعل الإلهي، فحققوا الانتصار بالإسلام، على الرغم من كل الظروف الصعبة، وحملوه إلى العالمين، مستوعبين سنن الله المطردة في الحياة والأحياء، ويمتلكون القدرة التي منحتهم إياها معرفة الوحي على تسخير السنن الاجتماعية والارتقاء إلى مستوى المدافعة الحضارية.

والمتأمل في مهبط الوحي وبلاد الجزيرة العربية، المتتبع لبناء الأنموذج الذي سوف يكون محل أسوة للبشرية حتى قيام الساعة على الأصعدة المتعددة ابتداءً من: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾، يرى أن الأنموذج والتعامل مع القيم الإسلامية استوعب الحالات الإنسانية جميعها، وقدم نماذج لجميع أنواع الاستجابات والمواجهات، على مستوى إنسان الجزيرة العربية:

فبعضهم أسرع إلى الإيمان وكان له فضل السبق والريادة.. وبعضهم رفع راية المواجهة والعداء سنوات وسنوات، حتى إذا ما أسلم قفز بالإسلام قفزات نوعية، انتصر فيها للإسلام، وعوّض بها ما فاته من الزمان.

ومن الناس من أسلم صغيراً وأبواه على الكفر، وقدم أنموذجاً يحتذى لمثل هذه الحال ضمن الأسرة.

وبعضهم أسلم كبيراً وفي سن متقدمة فكان له من العطاء ما كان.

ومن الناس من أسلم وزوجته على الكفر.. ومنهن من أسلمت وهاجرت وزوجها على الكفر.

ومنهم من غلبته الشهوة في موقف ضعف إنساني -وهي حالة تلحق بالبشر- فزنى (ماعز والغامدية).. ومنهم من سرق (المرأة المخزومية).

ومنهم من تعرض لامتحانات في الإسلام عسيرة جداً وصبر واحتمل.

ومنهم من نفد صبره ونطق بكلمة الكفر واحتفظ بالإيمان في قلبه.

ومنهم من تخلف عن الجهاد وتثاقل ومن ثم أدرك خطأه واستغفر وأناب.

ومنهم من وقع في الخيانة لله ورسوله (حاطب بن أبي بلتعة).

وغير ذلك من الحالات.

لذلك قد لا يستغرب القول: إن أبعاد بناء الأنموذج امتد إلى الجوانب السلبية، لتكون دليلاً لكيفية التعامل معها.

ولعل من الأمور التي تتطلب الكثير من التفكير والتأمل، لتشكل ارتكازاً في النهوض الحضاري، إنما تتمثل في استيعاب مراحل بناء الأنموذج والمثل، والإحاطة به من جميع الجوانب، ذلك أن الشائع في الأذهان، حتى عند بعض المفكرين، أن الأنموذج هو الصورة المثالية والفعل الإيجابي الذي يتطلع الناس إليه،

ويحاولون مقاربته ومحاكاته.. وهذا بدون شك من القضايا والأهداف الأساسية لطرح الأنموذج، واستدعائه في التربية والثقافة، لكن شريطة عدم تغييب الجوانب السلبية التي رافقت مراحل البناء.

وتأتي أهمية وعظمة ذلك الأنموذج والمثل أنه إنما تحقق من خلال عزمات البشر، بكل ما يعتريهم من ضعف وفتور وشهوات وأهواء هي من طبيعة جبلتهم، ولولا هذه الجوانب السلبية في المثل وبناء الأنموذج لما استحق أن يكون محل اقتداء للبشر، الذي يجري عليهم الضعف والخطأ والخطيئة.. ولو اقتصر الأنموذج على الجوانب المثالية الإيجابية لما صلح أن يكون محلاً لتعاطي البشر.

من هنا نقول: إن الأنموذج الذي تشكل على أرض الوحي وتحقق من خلال عزمات البشر، عرض لكل الحالات البشرية، وقدم أدلة لكيفية التعامل معها، ليكون الأنموذج مثالياً وواقعياً في الوقت نفسه.

وقد يكون من المفيد الوقوف والتأمل في شأن البدريين، الأنموذج الأمثل، الذين هم أكرم خلق الله على الله: « **لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ** »[1]، «...**اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ** »[2] .

هذه المكانة الخاصة العظيمة للبدريين لم تخرجهم عن كونهم بشراً ينالهم ما ينال البشر، وهنا تتمثل العظمة ويتحقق الإعجاز في تجسيد المبادئ في الواقع الإنساني ومن خلال عزمات البشر.

(1) أخرجه البخاري.
(2) أخرجه مسلم.

فلقد اختلف البدريون في قسمة الغنائم وتنازعوا، واعترى بعضهم الضعف وحظ النفس والنزوع البشري، حتى وصل الأمر إلى سوء العلاقة وفساد ذات البين، يقول عبادة بن الصامت، أحد النقباء في بيعة العقبة: اختلفنا في غنائم بدر حتى كادت تسوء أخلاقنا فنزعها الله منا، وجعل أمر قسمتها لله ورسوله.. ولم يقتصر ذلك على الاختلاف في قسمة الغنائم، وإنما امتد لأكثر من حالة ومرحلة بين يدي الإعداد للمعركة وبعد انتهائها.

والمتأمل في آيات الأنفال يبصر نماذج من الضعف البشري، وكيف انتشلت الآيات الإنسان من ضعفه، وسمت به إلى الدرجات العلى، ليكون ذلك مرتقى لكل مسلم.

اختلف البدريون في الغنائم، وخرجوا للمواجهة مكرهين، وجادلوا الرسول ﷺ في الحق من بعد ما تبين لهم، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وتوهموا أن النصر إنما يتحقق بقوتهم وحكمتهم وتدبيرهم بعيداً عن المدد الإلهي.

ولعل إثبات الآيات للتأمل فيها يحقق بعض الدلالات التي أشرنا إليها.. يقول الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ

بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ (الأنفال:٥-٦).

وعلى العموم يمكن القول: إن هذه الأرض، بلاد الجزيرة العربية، مهبط الوحي، وهذا الإنسان محل التنزيل، استوعبا جميع الحالات الإنسانية وما يعرض لها، فكان الأنموذج لكل حالة.. هذا الأنموذج الذي غطى جميع المساحات البشرية في كل الظروف، فلا توجد حالة إنسانية إلا ويوجد لها محل اقتداء في مسيرة النبوة.

لقد استوعب بناء الأنموذج في بلاد الجزيرة العربية، مهبط الوحي، في تنزيل القيم في الكتاب والسنة، جميع مجالات الحياة، في الزواج، والروابط الأسرية، والطلاق، والظهار، والخلع، والأخطاء، والكفارات، وعلاقات الجوار، وعلاج ما يلحق بها من إصابات، كما عرض لأنواع من تطبيقات الشورى وإدارة الخلافات السياسية في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول ﷺ وعند اختيار أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، كما قدم نماذج للمعاهدات والعهود الاجتماعية والوثائق الدولية والاجتماعية، من مثل صحيفة المدينة، وصلح الحديبية، ومعاهدات الجوار، كما كانت قضايا الجنوح إلى السلم والعدل والأمن، وشروط الحرب وأدابها وأهدافها، ومجاهدة الأعداء ومجادلة الخصوم وآليات التعامل معهم، في ضوء الآيات والأحاديث، أكثر من أن تحصى.

لقد استوعب ذلك الجيل (أنموذج القدوة) تاريخ النبوة الطويل، وأصَّل وأسس لكل الحالات البشرية والإنسانية، التي تعرض لمسيرة البشيرة على الأصعدة المتعددة، على المستوى السلبي والإيجابي، وكيفية التعامل معها من خلال معرفة الوحي، فهو أول من جسد الإسلام في حياته، ونزله على واقع

الناس، ليصبح دليل هداية وسبيل عمل للأجيال على مر العصور.. لذلك، فإن الخطورة كل الخطورة عندما يتيه الدليل ويضل.

ذلك أن الأرض التي أنبتت أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبا عبيدة وخالد بن الوليد ﷺ، وأنبتت فاطمة بنت مُحَمَّد ﷺ وعائشة بنت أبي بكر ﷺ، وخديجة بنت خويلد رضي الله عنهن جميعاً، أنبتت أيضاً أبا جهل وأبا لهب وعقبة ابن أبي معيط والوليد بن المغيرة وأم لهب وهند بنت عتبة، وغير ذلك من العتاة الأشداء الذين واجهوا الدعوة الإسلامية بكل الوسائل، فكان النصر من خلال عزمات البشر واطراد السنن والنواميس الحياتية.. والشر من لوازم الخير، وهذه سنة من سنن الحياة التي خضع لها المسلمون.

وهكذا تشكل العرب، المسلمون الأوائل، من خلال الظروف الصعبة والمعاناة الكبيرة، ومروا بكل أشكال المعاناة والمعاداة، وخبروا الحياة بكل أبعادها، ليتأهلوا لحمل الإسلام إلى العالم كله، بكل إشكالياته وظروفه وتداعياته وأقاليمه ومناخاته، ومن هنا صدقت فيهم قولة الشاعر مُحَمَّد إقبال رحمه الله، تعبيراً عن الحال:

إنما الإسلام في الصحرا امتهد   ليجيء كل مسلم أسد

لقد كانوا صفوة الصفوة، وشكلوا الأنموذج الذي يثير الاقتداء على التاريخ الطويل حتى يرث الله الأرض ومن عليها، على مختلف الأصعدة.. فعلى الصعيد السياسي لم تعط أية مرحلة من تاريخ المسلمين ميزة مصدرية التشريع والتنهيج بعد مرحلة السيرة النبوية ما أعطيت الخلافة الراشدة، يقول الرسول ﷺ:

«...**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»[1]، حتى لم توصف أية فترة سياسية بالرشد والاكتمال والكمال علىمدار التاريخ، على الرغم من عدم انقطاع الخير ضيقاً واتساعاً، إلا فترة الخلفاء الراشدين، وهذا له دلالاته الكثيرة، ولم يكن ذلك على المستوى السياسي فقط وإنما على المستويات جميعاً، الأخلاقي والاجتماعي والمعرفي والمنهجي...

إضافة إلى أن جيل الصحابة الذي فاز برضى الله، وبُشر بعضهم بالجنة وهم على قيد الحياة، يقول تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾، وفتح الباب لاستمرار الخير واستدعاء الرضا بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ (البينة:شعبان)، هذا الجيل بفكره وفعله والتزامه، جُعل خير القرون، قال ﷺ : « **خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**...»[2]، وقال: « **بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ**»[3]، ولا يعني القرن هنا المائة عام فيما أحسب[4]، وإنما يعني أن استصحاب هذا الجيل بفهمه للقيم الإسلامية، وسيرته العملية، يشكل المرجعية وجماع الخيرية لكل المسلم، التي تقتضي باستمرار محاولات المقاربة معه والاستهداء بهديه.. صحيح أن الكثير من المسلمين في

---

(1) أخرجه أبو داود.
(2) أخرجه البخاري.
(3) أخرجه البخاري.
(4) جاء في لسان العرب: القرن: الأمة تأتي بعد الأمة، قيل: مدته عشر سنين، وقيل: عشرون سنة، وقيل: ثلاثون، وقيل: ستون، وقيل: سبعون، وقيل: ثمانون، وهو مقدار التوسط في أعمار أهل الزمان.. وفي النهاية: أهل كل زمان، مأخوذ من الاقتران – بمعنى الصحبة – والقرن من الناس: أهل زمن واحد.. قال الأزهري: والذي يقع عندي، والله أعلم، أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبي.. والدليل على هذا قول النبي ﷺ: خيركم قرني – يعني أصحابي– ثم الذين يلونهم يعني التابعين؛ انظر ابن منظور، لسان العرب المحيط، المجلد الثالث، د.ط (بيروت: دار لسان العرب، د.ت) ص ربيع ثان رجب.

عصور التخلف لم يتجاوزوا دلالة الإخبار من الحديث، ولم يستشعروا ما فيه من التكليف لكل مسلم، ليستوعب أبعاد تلك الخيرية وخصائصها، ومن ثم يحاول تنزيلها على حياته وحياة مجتمعه، حتى لقد وصل الأمر بالإمام مالك رحمه الله، أمام دار الهجرة، في ترتيبه لمصادر التشريع أن قدم عمل أهل المدينة في استنباط وتقرير الحكم الشرعي على بعض النصوص الظنية.

وليس أقل من ذلك في دلالته، ذلك الفضل الكبير والميزات الخاصة التي فاز بها البدريون، أجنة الدعوة ورجالها الأوائل، حيث كانوا مفترق الطريق بين وجهة الكفر ووجهة الإيمان، حتى أن معركة بدر سميت من الله بيوم الفرقان، كما هو معلوم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ... ﴾ (الأنفال:٤١)، وبقيت قصتها قرآناً يتلى على الزمن وأنموذجاً يحتذى لكل العصور، وحسبنا هنا أن نذكر بقول الرسول ﷺ على أرض المعركة: «...**اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**»[1].. فالبدريون هم رسل الخلاص من الوثنية والعبودية، الذين أسسوا له، ورسموا نهجه، وأغروا بالتزامه إلى يوم القيامة، ومن هنا جاءت قولة الرسول ﷺ: « **لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ** »[2]، وهذه منزلة لا تدانيها منزلة.. وهل هؤلاء البدريون إلا نبت الجزيرة وأسلاف إنسانها، الذين كان لهم هذا الفضل وهذا السبق؟

ذلك أنه من المعروف أن هناك معارك في التاريخ الإسلامي كانت أكثر

(1) أخرجه مسلم.
(2) أخرجه البخاري.

ضحايا وأشد ضراوة من معركة بدر، ومع ذلك كان لبدر ما ليس لغيرها.. فهل للأرض التي أنبتت البدريين أن تعاود الإنبات من جديد لتعديل الوجهة وحمل الخير واستشعار المسؤولية؟

والنماذج في ذلك كثيرة، بل هي أكثر من أن تحصى، على الأصعدة المتعددة.

ولا يتسع المجال هنا لاستقصاء الآيات والأحاديث والآثار والسير التي تؤكد المعاني الكبيرة المركوزة في هذا الجيل، محل الأسوة والقدوة والريادة الأولى، ليكون منارات هدى لإنسان الجزيرة بشكل خاص وللمسلم أينما كان بشكل عام؛ لأن هذه الأرض التي كانت مهبط الوحي ووعاء الحركة الأولى، وهذا الجيل الذي تربى وتشكل على هذه الأرض، هو أكبر مصدر للإلهام والدلالة على الإمكان الحضاري والقابلية للنهوض، ذلك أن استشراف هذا الماضي هو السبيل الوحيد لتصويب الحاضر وتقويم مسيرته، وإبصار المستقبل، وبناء إرادة التغيير، والاهتداء إلى سننه.

ولعل من الأمور اللافتة حقاً، التي تستدعي الكثير من التفكير والتبصر والتأمل في المغزى، أن الإسلام لم يتجاوز بلاد الجزيرة العربية إلا بعد اكتمال بناء الأنموذج "المعيار".

فهل نستطيع بعد ذلك أن نقول: إن بناء الأنموذج المحتذى، على المستويات جميعاً، اختير له وكان محله إنسان الجزيرة العربية دون سائر الخلق، وإن تطبيق الإسلام وتنزيله على واقع الناس، على الأصعدة المتعددة، كان اقتداءً وتأسياً ومقاربة مع ذلك الأنموذج الذي تربى على عين النبوة؟

ولعل من الأهمية بمكان، أن نشير إلى أن مرحلة السيرة (بناء أنموذج الاقتداء)، اشتملت على عناصر من غير العرب، من أمثال سيدنا بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وغيرهم، ﷺ، ممن كان لهم عطاء متميز، ودور بارز في المشاركة، وكانوا نماذج للاقتداء في الصبر، والتحمل، والشورى، والجهاد، والعطاء بشكل عام، الأمر الذي يؤكد أن الإسلام ولئن كان لسانه عربياً، وقاعدته البشرية الأولى العرب، التي كانت محلاً للتنزيل وبناء الأنموذج، وجغرافيته الجزيرة العربية، إلا أن رسالته إنسانية وعالمية، لا فضل فيها لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح.

كما أن مراسلة الرسول ﷺ للملوك والأمراء، ودعوتهم إلى الإسلام، والبشائر التي بشر بها ﷺ أصحابه عن بلوغ الإسلام للعالم، إضافة إلى أن خطاب الإسلام قبل قيام الدولة والمجتمع كان إنسانياً عالمياً منذ الخطوات الأولى، يدل على أن رسالة الإسلام رسالة إنسانية، لكل إنسان حيثما كان.. فأي إنسان يؤمن بقيم هذا الدين، يصبح مواطناً عالمياً في أمة الإسلام، يتمتع بحقوق الأخوة الكاملة، التي يتحقق بها كل مسلم، حتى ولو لم يكن مجاوراً الحرم.

إضـــافة إلى أن مرحلة السيرة (بناء الأنموذج) لم تتجاور الدعوة والحوار والإقناع إلى المواجهة والقتال، بل كان التزامها قوله تعالى: ﴿ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾ (النساء:٧٧)، إلى أن قامت الدولة والمجتمع، ومع ذلك كان الجهاد رداً للعدوان، ودفاعاً عن استمرار نشر الدعوة والعقيدة، وتأميناً لحرية الاعتقاد، وإيقافاً للإكراه وتسلط الإنسان على الإنســـان، ولم يكن اعتداءً، كما أنه لم يكن قرار فرد أو مجموعة أو جماعة وإنما كان قرار الدولة المسلمة،

وكان الأفراد في مرحلة الأنموذج يدركون أن خطاب القتال والجهاد منوط بالسلطة المسلمة، وليس بالأفراد، وأن نصيب الأفراد من هذا الخطاب أن يعملوا على إقامة السلطة المسلمة التي تقوم بمقتضياته، حيث إن المخاطر سوف تكون كبيرة إذا حصل العبث في التعامل مع مثل هذه الأحكام الشرعية، ولم تستوعب مرحلة الأنموذج، ويصوب الاقتداء، ونَصَّب الأفراد أنفسهم بديلاً عن الدولة المسلمة وأعطوها الحق في ممارسة سلطات الدولة المسلمة في إعلان الحرب والأقضية وتنفيذ العقوبات.

إن هذه الأرض، أرض الجزيرة العربية، بما تمتلك من سبق له دلالاته وإشاراته الكبيرة على إمكانية النهوض، ما تزال بما حباها الله مؤهلة لمعاودة النهوض والقيادة إذا وعى إنسانُها ذاته، ووعى رسالته، واستوعب تاريخه، واستشعر مسؤوليته عن صناعة المستقبل، الذي يكتسب شرعية النسب للماضي.

إن إمكانات النهوض التي تمتلكها أرض الجزيرة العربية، قلب العالم وقبلة المسلمين، تؤهلها لمعاودة النهوض والتحقق بالبعد الرسالي والدور المنوط بها، إلى جانب ما أشرنا إليه من العمق التاريخي، والعمل الريادي، والجيل الذي شكل ولا يزال الأسوة والقدوة ومصدر الإلهام.

وحسبنا أن نشير هنا إلى ما تزخر به الجزيرة العربية من الإمكان الحضاري على المستوى الروحي والمادي والعمق الثقافي، والتجربة الحضارية التاريخية، ومنطلق عقيدة التوحيد، التي أعلنت المساواة الإنسانية وأوقفت التمييز وتسلط الإنسان على الإنسان، ما يؤهلها للاضطلاع بدور عالمي وإنساني إذا وعت ذاتها وأدركت رسالتها واستشعرت مسؤوليتها تجاه نفسها و(الآخر).

والرؤية التاريخية والواقعية ترشدنا إلى تقرير الحقيقة: إن الأمم بقيمها وعقائدها، أو عالم أفكارها، وعقول أبنائها وفعاليتهم، وليس بأشيائها مهما تكدست.. ونحن لا نريد بهذا أن نغمط الجانب المادي حقه، أو أن نضعه في مقابل الجانب الفكري الثقافي الروحي الإيماني، وندخل في هذه الثنائية التي أنهكت الحضارات تاريخياً، ونضع الإنسان أمام الخيار الصعب، فلا قيمة لعقيدة أو فكر أو ثقافة تُسقط من حسابها البعد المادي أو تتجاوزه أو تحاول إلغاءه؛ لأنه بعض الإنسان، وجزء من فطرته ودوافعها، وأحد مرتكزات حياته، ولكن نقول: إن الخطورة هي في التوهم أن الإمكان المادي، أو تكديس الأشياء في المجتمع، حتى لو كانت مستوردة، دليل نهوضه، وأن زيادة الاستهلاك والنقل معيار ارتقائه، وميزان دخله مؤشر حضارته، حتى ولو غاب الإنتاج وتوقف الإبداع وانطفأت فاعلية الإنسان، بسبب ضمور عالم الأفكار وبروز العلل والإصابات في كيفية التعامل معها.

إن القيم والثقافة والعقيدة والإيمان هي الروح والمحرك لعالم الأشياء، ولعلنا نقول هنا: إن الجزيرة العربية حملت رسالة إنسانية وحضارية بلغت أنوارها ومعالمها الهادية الدنيا بأسرها وهي لما تمتلك بعد من عالم الأشياء والأموال والطاقات المادية إلا ما يمكن أن يوصف أنه دون حد الكفاف، لدرجة فسر معها بعض المؤرخين الفتوحات الإسلامية التي خرجت من الجزيرة بدوافع اقتصادية مادية، في محاولة للسيطرة على خيرات البلاد المفتوحة، فكانت الجزيرة في موقع العطاء للعالم بعقيدتها وقيمها ومعرفة وحيها وأنموذج إنسانها.

فكيف إذا اجتمعت لها هذه الطاقات الروحية الهادية مع الإمكانات المادية

الهائلة، وأحسنت الاضطلاع بمهمتها، وأدركت بعدها الرسالي العالمي؟

إن التوهم بأن المرتكز هو الإمكان المادي يحوِّل الأمة من واقع العطاء إلى موقع الأخذ، ومن موقع الإنتاج إلى واقع الاستهلاك واستيراد الأشياء، وسيطرة التوهم أن هذه الأشياء بريئة ثقافياً ولا تشكل خطورة، في الوقت الذي أصبح من المسلمات أن كل مُنْتَج يحمل رسالة أو ثقافة منتجيه لكن بشكل خفي، فيساهم بعطالة الإنسان وتغييب الأفكار، إضافة إلى أن غياب عالم الأفكار يخرج أصحابه من دائرة التفاعل الثقافي والمساهمة الحضارية والتداول المعرفي، ويجعلهم بدل ذلك محلاً للنفايات الحضارية، ويحول المجتمع من شريك حضاري إلى زبون تجاري، وبذلك يتحول المال والإمكان المادي لصالح (الآخر)، يوظفه لنهوضه وإنتاجه في المحصلة النهائية.

ولا شك أن بلاد الجزيرة العربية تختلف تاريخياً عن غيرها من سائر الأرض، ليس فقط لما كانت محلاً له من النص الإلهي السليم الخالد، والبيان النبوي المعصوم، والتنزيل للقيم على واقع الناس، ذلك أن كل حبة رمل تحمل تاريخاً وفكراً وعبرة ودلالة، وكل غار وجبل وسهل وشجرة وشعب وبئر وماء وطريق وموطن وبيت، ينطق ويستدعي الوعي ويثير الفاعلية ويحيي الذاكرة ويجدد المعاني الغائبة.

إن بلاد الجزيرة العربية تمتلك -كما أسلفنا- النص الخالد الذي انتهى إليه تاريخ النبوة، وتمتلك الإرث التاريخي للنبوة، وتمتلك البيت الحرام قبلة المسلمين في العالم، حيث يبدأون نهارهم ونشاطهم بالتوجه إليها، ويتابعون الوجهة خمس مرات يومياً، لتبقى اليقظة مستمرة والمعاني حاضرة، ويختتمون يومهم بالتوجه إليها أيضاً، ويصرون على هذا التوجه حتى بعد الموت فيوضعون بقبورهم متوجهين صوب

القبلة، إنهم بذلك إنما يتوجهون صوب العقيدة، واستمرار تغذيتها بالعبادة اليومية، حتى جُعل التأمل في البيت الحرام (الكعبة) عبادة.

إنهم لا يتوجهون إلى أشياء ووثنيات، إنما يتوجهون إلى أفكار وقيم وثقافات ومحركات اجتماعية.. يتوجهون صوب الهدف الأعلى، في محاولة للاسترداد وإعادة التأهل! ذلك أن المشروعية العليا في بلاد الجزيرة العربية سوف تبقى للقيم الإسلامية.. حتى أن الشيطان، من الإنس والجن قد يئس، كما أخبرنا الصادق المصدوق، من النيل من هذه القيم، ومن حملة هذه القيم، لكن ذلك لا يعني الكف والتوقف، فالتحرش مستمر، فعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»[1].. وفي حجة الوداع قالﷺ: «... **أَلا إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَدًا وَلَكِنْ سَيَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِي بَعْضِ مَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَيَرْضَى بِهَا**...»[2].. والمحاولات مستمرة.. فكيف نحاصر هذا التحرش من خلال التنبه لخطورته، وإعداد العدة لمواجهته وإدراكه؟

إن المعاني التي تحملها الكعبة قادرة على تحريك الناس في أطراف الدنيا يومياً، هذا الأمر الذي لم يتحقق لأية عقيدة أو فكر أو ثقافة.. فكيف نستوعب هذه الحركة؟ وكيف نرشدها لتبلغ أهدافها؟ وكيف نقودها إلى الخير، وهي رصيد جاهز؟

إن المسلم يجتهد في جمع المال، ولو على حساب نفقته واستهلاكه ليختصر مسافة الزمان والمكان بينه وبين مهبط الوحي، ويذهب إلى الحج،

(1) أخرجه مسلم.
(2) أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص، وحسنه الألباني.

ليرى البيت، ويعيش في رحابه، ويسترجع تاريخه.. يطوف بالبيت عكس حركة الدوران وحركة عقارب الساعة، ليسترجع الماضي ويعيش أجواءه، ويجدد العزم، ويتجدد في عقله ونفسه وسلوكه.

إن هذه المواقع هي الرحم الروحي والثقافي والعقيدي، الذي يعد ويعيد الداخلين إليه، القاصدين له بالحج والعمرة، بولادة جديدة: « **مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»[1].. فالجزيرة محل للتجديد والتجدد وإعادة الولادة، وتجديد العزم والعزيمة، ومراجعة النفس وشحذ الفاعلية للإقلاع من جديد، انطلاقاً من الإنسان المولود الجديد.

إن هذا الرصيد العالمي المتحرك بهذه القيم وهذه الأفكار، بحاجة إلى إعادة النظر والتأمل، للإفادة من حركته لصالح الإنسان من أهل القبلة، وأقصد بذلك أهل الجزيرة العربية، على الرغم من أن القبلة ملك للمسلمين جميعاً، فقد جعلها الله للناس، سواء العاكف فيها والباد، بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ (الحج:٢٥)، إلا أن المسؤولية هنا أكبر.

فإذا أبصرنا هذه الطاقات الروحية والفكرية والثقافية الهائلة، وهذه القيم السماوية الهادية، التي تحرك جميع أطراف الدنيا صوب الجزيرة، وأبصرنا ما حبا الله به بلاد الجزيرة العربية من الطاقات والخبرات والإمكانات المادية، التي تحرك عجلة الحضارة العالمية وتغذي تراثها، أدركنا الدور الممكن والمنوط ببلاد الجزيرة العربية عندما تكون في مستوى تاريخها وإسلامها وعصرها.

(1) متفق عليه، واللفظ للبخاري، وفي رواية لمسلم: «**من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه**».

ولعل من أهم المقومات والعوامل المؤهلة لهذا الدور الرسالي، والاستئناف الحضاري، واسترداد الفاعلية، إضافة إلى ما أشرنا إليه من الإمكان الحضاري المادي والروحي، وجود عوامل مشتركة، وتجانس متميز، ونسيج اجتماعي متماسك، وجغرافيا واحدة تقريباً، الأمر الذي لم يتوفر للكثير من المواقع التي تحاول اليوم أن تبني جغرافيا ثقافية فكرية للتعويض عن الجغرافيا البشرية.

إن بلاد الجزيرة العربية تمتلك الجغرافيا الفكرية والثقافية والاجتماعية والبشرية، كما الجغرافيا التاريخية أيضاً.

فالعقيدة واحدة، والعادات واحدة، والوحدات الاجتماعية واحدة، والتاريخ واحد، والعدو واحد، والنظام الاجتماعي والتقاليد والعادات واحدة، ونعم الله موفورة ومذخورة، وجسور التواصل والعطاء موجودة، والمسؤولية أمام الله عظيمة وكبيرة، عن الذات وعن (الآخر)، فإذا توقف الرأس عن التفكير فسوف تطيش سهام الحواس وتتناكر، وإذا توقف القلب عن الضخ تجف الشرايين وتتوقف الحياة، والجزيرة تاريخياً في موقع القلب وموطن الرأس من العالم الإسلامي والعالم.

والسؤال الكبير المطروح على المستوى السياسي والثقافي والفردي والمؤسساتي على هذه الأرض خاصة:

من نحن في التاريخ؟

وأين نحن في الواقع المعاصر؟

وماذا نريد أن نكون في المستقبل؟

وكيف نحقق إرادتنا في التغيير وأهدافنا في الواقع؟

كيف نصوب شهادة الرسول ﷺ علينا، لنتأهل ونصبح شهداء على الناس؟

فالقضية ليست بالادعاء، وإنما بالعطاء، استجابة لقوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾.